تقديم

يواصل كتاب المسبار الشهري «النقشبندية: النص، التاريخ، الأثر» (الكتاب الرابع والثلاثون بعد المئة، فبراير (شباط) 2018) دراسة الظاهرة الدينية وتشكلها عبر التّدين الجماعي والفردي، وتأثرها بالمحيط الثقافي، ثم تطورها وفقًا للزمان والمكان والرجال. ويختار الطريقة النقشبندية لتوضيح معاني التصوّف السّني، وهو واحد من أعمدة في الطرق الصوفيّة السنية اللاحقة لها، وقد عمّ تأثيرها النطاقين الآسيوي والأفريقي. ولا يزال حضورها السياسي والاجتماعي محط اهتمام الباحثين، كما استطاعت مبادئها في الذكر والتربية الروحية أن ترسخ قيمًا جديدة على الممارسة الصوفية.

تهتم الطرق الصوفيّة في بنائها المعرفي والسلوكي بالاتصال والسند الشفهي، والتربية الروحية، لذا جاء تناول أطوار النشأة الأولى للطريقة النقشبندية فاتحةً لدراسات الكتاب، مع التركيز على السند المزدوج لها، فهي تنسب الذِّكر الخفي إلى الصحابي أبي بكر الصديق، بينما تحافظ على السند العلوي في الذِّكر العلني، كما تفعل بقيّة الطرق الصوفية.

لقد كان للنقشبندية -كما تبين إحدى دراسات الكتاب- من القسمات والخصائص المائزة ما جعلها نمطًا فريدًا من التصوف السُّني؛ فالنقشبنديون أكثرُ تمركزًا حول الشريعة، وأوفرُ عنايةً بتحصيل علومها، وأعظمُ تشددًا في رعاية مبادئ المذهب السُّني والصدور عنه في القول والعمل، وأشدُ انفتاحًا على المجتمع، وحرصًا على الاتصال بدوائر الحكم والسياسة، ولهم قبل ذلك طريقةٌ خاصةٌ في التأمل والسلوك، فضلاً عن قاعدة شعبية متسعة، وإقبالٍ على الشأن العام والاشتباك مع تفاصيله ومفرداته على نحو وَسَمَها بطابع نضالي لا تخطئه عينُ القارئ البصير.

المسبـار

(c) www.nidaulhind.com

إن الحضور الآسيوي في النقشبندية جلب النفوذ السياسي في بلاد ما وراء النهر، خصوصاً أن الموقف الصوفي السلبي من السياسة انكسر في حالات جعلت مشايخ الطريقة النقشبندية يلعبون أدوارًا سياسية مهمة، تنقل فيها دور يوسف الهمذاني، وعبدالخالق الغجداوني، إلى أن يأتي الدور التأسيسي لمحمد بهاء الدين الذي هو عامود الطريقة، وواضع جانبٍ رئيسٍ من مبادئها. ثم المجددين للطريقة مثل الشيخ أحمد السرهندي. واعتنى الكتاب بتتبع التفاعل الثقافي في أنماط التلقين والتلقي والذكر والتعبد مع البيئة الهندية.

لا يمكن تفسير المفاهيم الصوفية الراهنة، وفكّ رموز لغة الذوق والشطح لكل المتصوفة من لدن الحسين بن منصور الحلاج، وأبي القاسم الجنيد بن محمد الخزاز القواريري، وعبدالقادر الجيلي أو الجيلاني، وأبي الحسن الشاذلي، وعبدالحق بن سبعين، وصولاً إلى متصوفة اليوم، دون الاستعانة بمخزون الطريقة النقشبندية في الشرح وأدبياتها الروحية التي سعت أن تصبح «المفسّر» و«الموضح» والجاذب لعالم الحقيقة ليوافق الشريعة.

وضمن مشروع دراسة التصوف والتدين الرسمي والموازي معًا، جاءت الإضاءة على حالة من حالات التصوّف السّني السلوكي؛ إذ تأتي النقشبندية حلقة وصل بين دائرة التصوف المولوي والمدرسة الأكبرية، لذلك كانت الشخصيات التي ربطت بين الطرق مثل عبدالرحمن الجامي، وعبدالغني النابلسي محط دراسة الكتاب.

تعددت تفرعات الطريقة النقشبندية تحت مسميات التجديد وغيره، لموافقة البيئة المحلية لكل مكان، فكانت الطريقة النقشبندية المجددية في الحجاز، في القرن السابع عشر، التي تركت تأثيرها في سيبيريا، علماً أن الإسلام قد دخل سيبيريا في فترة مبكرة نسبياً، عن طريق التجار التتار والبخاريين وبمناسبة حملات الأسلمة. ونادراً ما كان الصوفية غائبين بل لهم أيضاً نصيب في هداية الوثنيين إلى دين الإسلام وإنشاء المساجد والمدارس الإسلامية.

(c) www.nidaulhind.com

في الختام، يتوجه مركز المسبار بالشكر لجميع المشاركين في الكتاب، ويخص بالذكر الزميلين خالد محمد عبده، وعمر البشير الترابي، اللذين نسقا العدد، ونأمل أن ترضيكم ثمرة جهدهما وفريق العمل.

رئيس التحرير

فبراير (شباط) 2018

(c) www.nidaulhind.com

«ملفوظات» الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح أركان الدَّولة

صاحب عالم الأعظمي الندوي(*)

أسهم الصوفية في مجال الإصلاح والنصيحة والإرشاد من خلال ملفوظاتهم ومكتوباتهم في العصور الإسلامية لا سيما في عصري سلطنة دهلي والدولة المغولية؛ معظمهم قاموا بذلك مع الإخلاص الكامل متجردين من الهوى والأغراض الشخصية والنوايا السيئة التي قد تحبط الأعمال، مع استخدام طرق الرفق والحكمة والبصيرة مع اختيار أسلوب النصح المتزن البعيد عن الانفعالات وانتقاء الكلام الطيب والوجه البشوش والصدر الرحب، واختيار الزمان والمكان المناسبين لنجاح عملية الإصلاح والنصيحة والإرشاد.

(c) www.nidaulhind.com

نداء الهند

(*) باحث وأكاديمي من الهند.

يعتبر الشيخ الصوفي أحمد السرهندي (رحمه الله) المتوفى 1033هـ/ 1624م من الشخصيات المعروفة بين الشخصيات الصوفية الهندية الذين كان لديهم رؤية واضحة حيال الدين الإسلامي، وبذلوا جهوداً طيبة في نشر الفكر الإسلامي الصوفي وترويجه في ربوع الهند، بجانب بذل السعي الحثيث لتقويم الوزراء والأمراء والملوك دينيًا وفكريًا وثقافيًا من خلال تقوية العلاقات عبر السماح لهم بالحضور في الجلسات العلمية والدينية الخاصة والعامة، وإرسال الرسائل إليهم لإصلاح أحوالهم الدينية والفكرية. وعلى الرغم من أن تقوية العلاقات مع الأمراء والسلطات الحكومية كان أمرًا مثيرًا للجدل بين الطرق الصوفية لا سيما الطريقة الچشتية. ولكن الطريقة النقشبندية -منذ نشأتها وقبل وصولها إلى الهند- قامت بتوطيد العلاقات مع الأمراء والوزراء والملوك، وأدت دورًا كبيرًا في مجال السياسة[1]. ومن هنا لم يجد الشيخ السرهندي نفسه معزولًا عن الشؤون السياسية.

فقد أدى دورًا مهمًا في السياسة المغولية. وكان يعتبر السياسة جزءًا مهمًا من الدين الإسلامي مثل أسلافه من الطريقة النقشبندية لا سيما خواجه عبيدالله الأحرار المتوفى 895هـ/ 1490م[2]. وقد عبر الشيخ أحمد السرهندي عن ذلك في إحدى رسائله قائلًا: «اعلم أن السلطان في الدنيا، كالقلب في البدن، فإذا صلح القلب صلح الجسد، وإذا فسد القلب فسد الجسد، كذلك صلاح السلطان صلاح الدنيا وفساده فساد الدنيا...»[3]. ومن أهم أعمال الشيخ السياسية إذ اختار منهجًا خاصًا لإقناع العلماء، والصوفية[4]، والأمراء، حتى السلطان جهانگير المتوفى 1036هـ/

(1) Khliq Ahmad Nizami, ‹Naqshbandi influence on Mughal Rulers and politices› in State and culture in Medieval India, Delhi 1925, pp. 158-176

(2) For Khwaja Nasiru›d-Din ‹ Ubaidu›llah Ahrar (Died 1490), see Saiyid Athar Abbas Rizvi, A history of Sufism in India, Two Volumes, Fourth impression 2009, Munshiram Publication, Delhi, India, Vol.2 P.174-177

(3) راجع: مكتوبات الإمام الرباني، جـ1، رقم المكتوب: 47. 16. أحمد الفاروقي السرهندي، المكتوبات المسمى بـ«الدرر المكنونات النفيسة، ثلاثة مجلدات، ترجمة عربية محمد مراد المنزلوي القزاني، تصحيح عبد لحميد فردوس، ط: المطبعة الميرية مكة المكرمة، 1316-1317هـ/1899م؛ نسخة أخرى بتحقيق عبدالله أحمد الحنفي المصري، ط: مكتبة النيل القاهرة، دون تاريخ. وتم الاعتماد على النسخة المصرية على مدار البحث كله.

(4) عن قيامه بتقويم الصوفية وإصلاح الفكر الصوفي راجع:
Muhammad Abdul Haq Ansari, Sufism and Shari`ah: A study of Shaykh Ahmad Sirhindi›s Effort to Reform Sufism, (Islamic foundation U.K. 1986).

(c) www.nidaulhind.com

1627م نفسه وكان معاصرًا له؛ بإصلاح أحوالهم الدينية والفكرية والسياسية، وذلك عبر ملفوظاته التي سطرها في الرسائل، وكان يبعث بها إلى هؤلاء النخبة. وقد توجه إليهم بجدية تامة مع بذل الجهود كافة عبر القنوات العديدة لتحسين الأوضاع الدينية والفكرية في الهند.

وهكذا مجموعة ملفوظاته المنشورة في المكتوبات الربانية مليئة بأمثال النصائح والإرشادات والإصلاح، الصادرة عنه حيال الأمراء والوزراء والسلطان نفسه. وتعتبر هذه الملفوظات وثيقة تاريخية لدراسة الحياة السياسية والدينية والفكرية والاجتماعية في ذلك الوقت. وسأبحث من خلال تلك الملفوظات دور أحمد السرهندي في تقويم النخبة السياسية والإدارية للدولة المغولية لنشر الفكر الإسلامي الصحيح، وإخراج الإدارة المغولية وسلاطينها وأمرائها والشعب المسلم الهندي نفسه من البدع والخرافات واللادينية إلى الإسلام السليم والقويم. ويعد أحمد السرهندي من أكبر المصلحين في ذلك الوقت، بل يعتبره كثير من الباحثين من مجددي الإسلام بسبب دوره الكبير في تجديد الدين الإسلامي وإحياء السنة النبوية وإصلاح المجتمع الهندي، وتقويم الإدارة المغولية دينيًا وفكريًا وسياسيًا واجتماعيًا.

أهمية الملفوظات في دراسة التاريخ والحضارة الإسلامية

تعريف لغوي لكلمة «ملفوظ»: جاءت كلمة ملفوظ من الكلمة العربية «لفظ» بمعنى «نطق به»، ومنها كلمة «لفظ» ما يلفظ به من الكلمات جمعها ألفاظ. ويقال لفظ الشيخ بالكلام أي نطق به وتكلم. والآية القرآنية تقول: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق 18). ومنها كلمة «ملفظ» يعني ما يلفظ به من الكلام. ويقال أيضًا: «حرف ملفوظ أي منطوق أي ينطق به. ولكلمة «ملفوظ» معنى آخر في اللغة العربية ألا وهو «مطرود»[5].

صارت كلمة «ملفوظ» أو «ملفوظات» من مصطلحات الآداب الصوفية. وهو

5) راجع: كلمة «لفظ» في المعجم الوجيز، ط: وزارة التربية والتعليم، مصر، عام 1418هـ/1997م، ص560.

(c) www.nidaulhind.com

شامل لكل ما يعني من النصائح والإرشاد والإصلاح التي قام بها الصوفية في تاريخهم الطويل من خلال مجالسهم الخاصة والعامة، وإلقاء الكلمة على السلاطين والإداريين والعلماء والصوفية شفويًا أو مكتوبةً من خلال إرسال المكتوبات الدعوية. ومعظم الصوفية في الهند خلال عصر سلاطين دهلي اختاروا منهجًا شفويًا لإلقاء كلمتهم الدعوية على الخاصة والعامة وعلى تلاميذهم للتربية والتعليم، ولكن ما كانوا يمنعون تلاميذهم ومريديهم من تسجيل ما كانوا ينطقون به[6]. ثم تطور هذا المنهج في عصر الدولة المغولية لدى بعض الصوفية الذين فضلوا الملفوظات المكتوبة في صورة الرسائل والمكتوبات على الملفوظات الشفوية. ومنهم -على سبيل المثال- الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي، والشيخ أحمد السرهندي وغيرهما.

وقد يعترض البعض على أن المكتوبات ليس لها علاقة بالملفوظات، فهما مصطلحان مختلفان من ناحية البنية اللغوية. والجواب على ذلك أنه علينا أن ننظر فيهما من ناحية المقاصد. وطبعًا لا يعنينا هنا -كباحثين في التاريخ والحضارة- التفاصيل في توضيح هذه المصطلحات لأن لها فرسانها من الألسنيين ونقاد الأدب وأهل الدراسات اللغوية. وهناك كثير من الباحثين عالجوا هذا المصطلح لتفريق بين اللسانيات التلفظية واللسانيات الخطابية. ووصلوا إلى النتيجة أنهما واحد في المعنى والانسجام[7]. وعلى كلٍّ، لو أنعمنا النظر في مقاصد الملفوظات لوجدنا أنها كانت تهدف إلى التربية والتعليم بالدرجة الأولى عند الصوفية، شفوية كانت أم مكتوبة في صورة الرسائل. ومن هنا نستطيع أن نقول: إن الملفوظات تضارع تمامًا المكتوبات والرسائل والخطابات والحكم، كتبها الشيخ بنفسه أو سجلها أحد تلاميذه مثلًا.

(6) ومن أهم كتب الملفوظات الموثقة للمشايخ الچشتية «خير المجالس»، و«فوائد الفوائد»، و«سرور الصدور»، و«أحسن الأقوال»، و«نفائس الأنفاس»، و«جوامع الكلم»، و«أنوار العيون»، و«لطائف قدوسي»، و«فخر الطالبين» و«نافع السالكين» وغيرها. عن الآداب الچشتية الصوفية راجع: خليق، أحمد نظامي: تاريخ مشايخ چشت، مجلدان، ط: إدارة أدبيات دهلي عام 1980، ص444-447.

(7) راجع: مقالة علمية لعز الدين الناجح: مقاربة تداولية لحكمة عطائية، في دورية «الخطاب» المحكمة الصادرة عن جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر. العدد الثالث مايو (أيار) 2008، ص26-27.

(c) www.nidaulhind.com

جهود الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح أركان الدولة

يتبين من مكتوبات الشيخ السرهندي، والتي أرسلها إلى أركان الدولة لا سيما الوزراء الكبار، أنه اهتم بإصلاح هذه الشريحة اهتمامًا بالغًا. وقد ذكر الشيخ في بعض المكتوبات الأسباب التي جعلته يسعى إلى إصلاح أركان الدولة بالدرجة الأولى؛ حيث -وعلى حسب قوله- إنهم يعتبرون عصب المجتمع مثل القلب والروح في جسم الإنسان، واللذين تعتمد عليهما صحة الإنسان وفساده. يشرح الشيخ في أحد مكتوباته الموجهة إلى خانجهان وزير السلطان جهانگير، فيقول بعد ما شرح له ووضح العقيدة الإسلامية والعبادات ومقاصد الشريعة وترويجها في المجتمع الهندي، ودعوته للسلطان وأمرائه وأعوانه إلى نشر وترويج الإسلام والشريعة الإسلامية: «معلوم أن السلطان كالروح وسائر الناس كالجسد؛ فإن كانت الروح صالحة فالبدن صالح وإن كانت الروح فاسدة فالبدن فاسد؛ ومن هنا فبذل الجهود والسعي إلى إصلاح السلطان وأعوانه بيت القصيد والسعي الحقيقي إلى إصلاح المجتمع بأكمله. ولن يتحقق الإصلاح الحقيقي إلا من خلال إظهار كلمة الإسلام بأي طريقة كانت (...) ولو نجحت الدولة في تحقيق هذه الغاية المرجوة لحصلت على الوراثة العظمى من الأنبياء (عليهم الصلوات والسلام)، وهذه الدولة قد حصلت لكم مجانًا؛ فينبغي أن يعرف قدرها ومنزلتها...»[8].

ويوجه برسالة أخرى لمزيد من توضيح وتبين هذه القضية، إلى صدر الصدور الشيخ ميران صدر جهان فيقول: «إن إحسان السلاطين حاصلة لكافة الخلق فبحكم (جبلت القلوب على حب من أحسن إليهم) قلوب الخلائق مائلة إلى جانب المحسنين بالضرورة، فلا جرم كانت أخلاق السلاطين وأوضاعهم سارية إلى جميع الخلائق بواسطة هذا الارتباط القلبي على تفاوت درجات الإحسان وكأنه لذلك قيل: الناس على دين ملوكهم؛ وأحوال القرن السابق مصداق هذا الكلام....»[9].

---

[8] راجع: المكتوبات، جـ2، مكتوب رقم (67)، ص159-169.

[9] راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (195)، ص225-226.

(c) www.nidaulhind.com

وانطلاقًا من هذه الرؤية الواضحة تجشم السرهندي عناءً طويلًا لإصلاح السلطان وأعوانه وتقويمهم. ووضع خطة جيدة لاستخدام الكوادر السياسية المهمة والمقربة إلى السلطان نفسه في ترويج الشريعة الإسلامية. وكان من حسن الحظ أن معظم هؤلاء الوزراء والأمراء كانوا يعتقدون في الطريقة الصوفية النقشبندية وكانوا من مريديه. ويرى بعض الباحثين أن الشيخ السرهندي بادر إلى تقوية العلاقات معهم، ولما تقربوا هم إليه تأثروا بشخصيته جدًا ورسخ محبة وعظمة الشيخ في قلوبهم، مما جذبهم إليه، وهنا انتهز الشيخ فرصة لتربيتهم وإرشادهم: فجعلهم لائقين لتفعيل نشاطات الإصلاح والإرشاد في الإدارة المغولية»[10].

ولتحقيق الغايات المرجوة اختار الشيخ منهجًا خاصًا ألا وهو كتابة المكتوبات والرسائل الموجهة إلى العلماء والوزراء والأمراء والصوفية المريدين وغيرهم، وكان ذلك من الوسائل الناجحة والمؤثرة آنذاك للتواصل العلمي والبحثي والديني، مما أضاف في الأدب الصوفي نوعاً من أنواع المواد التاريخية التي من الممكن أن يتم استخراج المعلومات القيمة المتعلقة بالحياة السياسية، والدينية والاجتماعية والثقافية وغيرها من المعلومات المهمة. ومعظم العلماء والفضلاء اختاروا هذه الوسيلة للتواصل العلمي والبحثي مع بعضهم بعضًا[11].

وضع الشيخ بعض الأشياء بعين الاعتبار لدى إرسال المكتوبات إلى الأمراء والوزراء، ومنها عدم استخدام المصطلحات الفلسفية والصوفية وتعبير الموضوعات باللغة السهلة والبسيطة؛ ذلك لأن الهدف كان يتعلق بتفهم الأمراء والوزراء العقائد الدينية وأحكام ومقاصد الشريعة الإسلامية وتعريفها؛ لكي تتمكن هذه الكوادر من ترويج الشريعة الإسلامية في البلاط السلطاني وتنفيذها وخلق الجو الديني المناسب

(10) محمد منظور نعماني: تذكرة إمام رباني، ط: مكتبة فرقان، لكهنؤ 1970، ص144.

(11) ومن معاصري أحمد السرهندي، عبدالحق الذي خاطب الإدارة المغولية أيضًا من خلال إرسال المكتوبات لتقويم الأمراء والوزراء دينيًا وثقافيًا، إلى جانب إرسال المكتوبات إلى الصوفية والعلماء لتصحيح كثير من العقائد الدينية مع النقد فيما كتبوا حول الدين والشريعة وفي التصوف والفكر الإسلامي. راجع: المكتوب المرسل إلى الوزير الشيخ فريد بمناسبة وفاة السلطان أكبر، والذي يحمل المواد المتعلقة عن التوحيد، وتعريف الرسالات السماوية، وواجبات الأنبياء وخصائصهم في العملية الدعوية. والرسائل الأخرى المرسلة إلى العلماء والصوفية. راجع: سيد، أحمد عروج القادري: تصوف اور اهل تصوف، ترتيب رضي الإسلام الندوي، ط: مركزي مكتبة إسلامي دهلي عام 2011، ص127-159.

(c) www.nidaulhind.com

في الإدارة المغولية، مما كان قد وفر الفرصة لهم أن يعرّفوا السلطان بمسائل الدين والشريعة الإسلامية. وكانوا يبغون من خلال هذه المراسلات أيضًا الحصول على المعلومات المتعلقة بأحوال السلطان وموقفه من الدين والعلماء والشريعة وأحوال البلاط السلطاني. وكانوا يعرفون حق المعرفة أن هذه الشريحة من الإدارة المغولية تستطيع أن تؤدي دورًا مهمًا في تحقيق الغايات المرجوة، ومن هنا اختاروا في هذه الرسائل الطرق العديدة لخلق الرغبة لدى الوزراء والأمراء في قبول الدعوة. وكان منها أنه في كثير من الأحيان يذكر في مكتوباته أنهم يثنون عليهم ويشجعون على تمكنهم من تحقيق الأهداف الدينية في البلاط السلطاني، مع ذكر تأثيرهم القوي في سياسة السلطان وقراراته الإدارية والسياسية.

كتب في أحد مكتوباته الموجهة إلى الوزير الشيخ فريد في الترغيب بترويج الشريعة الغراء فيقول: «نسأل الله سبحانه تقوية أركان الشريعة الغراء ورواج أحكام الملة السمحة (...) والنجاة لغرباء أهل الإسلام في مثل هذه الأيام من لجة بحر الضلالة (...) وينبغي صرف الهمة العليا في تحصيل هذه السعادة العظمى. وقد تيسر لكم بعناية الله سبحانه وتعالى الجاه والكرم والعظمة والشوكة كلها، فإن انضمت هذه الأوصاف إلى تلك الأعمال الحسنة مع وجود الشرف والعزة؛ فقد أحرزتم قصب السبق في ميدان السعادة على جميع الأقران، وهذا الفقير متوجه نحوكم بإرادة إظهار أمثال هذه الكلمات في تأييد الشريعة الحقة وترويجها»[12].

وذكر ذلك بشكل واضح وصريح في أحد مكتوباته المرسلة إلى وزير السلطان جهانگير فيقول: «... والدولة التي جعلك الله سبحانه ممتازًا بها وأكثر الناس غافلون عنها؛ بل تكاد لا تدركها أنت أيضًا (...) ولما كان مثل هذا السلطان عظيم الشأن، مصغيًا إلى قولكم بحسن الاستماع ومتلقيًا إياه بالقبول، كان اللازم أن يعد ذلك فرصة عظيمة، وأن يبلغ الكلمة الحقة أي كلمة الإسلام الموافقة لمعتقدات أهل السنة صراحة أو إشارة إلى سمع السلطان، وأن يعرض إليه كلام أهل الحق بقدر الإمكان؛ بل ينبغي أن يترصدوا الفرص ويلتمسوا دائمًا مناسبة من المناسبات يتطرق فيها

[12] راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (51)، ص93-94.

(c) www.nidaulhind.com

الكلام إلى الدين والشريعة الإسلامية، حتى تنتهزوا الفرصة لإظهار أن الإسلام حق، والكفر باطل وشنيع...»[13].

ويخاطب السرهندي الوزير الخان الأعظم ميرزا عزيز كوكا بشكل واضح فيقول: «... فلا جرم، فاختيار صحبة السلاطين وجعلهم منقادين إليه بتصرفه وترويج الشريعة بواسطتهم، وقد جعل الله سبحانه كلامكم مؤثرًا وأودع فيه تأثيرًا ببركة محبتكم لأكابر هذه الطائفة وأسرارهم وظهرت عظمة إسلاميتكم في نظر الأقران، فالملتمس سعيكم في هذا الباب ولو لهدم أكبر أحكام الكفر الذي له شيوع تام بين أهل الإسلام، حتى يكون أهل الإسلام محفوظين من تلك المنكرات، فجزاكم الله عنا وعن سائر المسلمين خير الجزاء»[14].

وتفيد بعض المكتوبات بأنه كان يدعو الكوادر السياسية من هؤلاء الوزراء والأمراء إلى ترويج الشريعة الإسلامية في البلاط السلطاني وإلى تقويم السلطان وإصلاحه وإرشاده. يكتب في أحد مكتوباته داعيًا الوزير جهانگير قلي خان الملقب «لاله بيگ» فيقول: «... قد بلغت غربة الإسلام منذ قرن واحد مبلغًا، وغاية لا يرضى أهل الكفر بمجرد إجراء أحكام الكفر في بلاد الإسلام، بل هم يريدون إزالة أحكام الإسلام ورفعها بالكلية، ويجتهدون في إعداد أثر الإسلام والمسلمين، وبلغ الأمر حدًا لو أظهر مسلم شيئًا من شعائر الإسلام يذيقونه القتل. وذبح البقر من أعظم شعائر الإسلام في بلاد الهند، ولعل الكفار يرضون بأداء الجزية ولا يرضون بذبح البقر أصلًا. وها نحن في بداية حكم السلطان جهانگير. فإن حصل الرواج والقوة للإسلام والاعتبار للمسلمين في بداية سلطنته فبها ونعمت، وإلا فالأمر سيكون صعبًا للغاية في حق المسلمين. الغياث ثم الغياث والغياث...»[15].

ويقول في رسالة أخرى موجهًا كلامه إلى صدر الصدور ميران: «ولما تغيرت

(13) راجع: المكتوبات، جـ2، مكتوب رقم (67)، ص166-167.

(14) راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (65)، ص111-112.

(15) راجع: المكتوبات، مكتوب رقم (81)، جـ1، ص133.

(c) www.nidaulhind.com

الأوضاع السياسية الآن في البلد وانكسر سور عناد أهل الملل، لزم أئمة أهل الإسلام من الصدور العظام والعلماء الكرام صرف جميع الهمة في ترويج الشريعة الغراء، وتقويم أركان الإسلام المنهدمة وأحكامها في بداية الأمر، فإن التأخير ليس فيه خير وقلوب الغرباء في غاية الاضطراب من هذا التأخير في هذا الباب، وشدائد القرن السابق متمكنة في قلوب المسلمين؛ فهم خائفون من فوت تلافي ذلك فتنجر غربة الإسلام إلى الطول، فإذا لم يكن في السلاطين شوق ترويج السنة السنية، يتساهل مقربوهم في هذا الباب أيضًا، ويعدون حياة أيام معدودة غنيمة يكون الأمر ضيقًا على فقراء أهل الإسلام ومظلمًا جدًا... «[16].

والجوانب المضيئة المهمة من مكاتيبه المرسلة إلى أركان الدولة والتي تؤكد إرسال دعوته من خلالها، أنه بذل الجهود الحثيثة في توضيح الفكر الإسلامي وتبين المسائل والقضايا الإسلامية. وفي كثير من الأحيان قام ذلك مع ذكر الأحاديث والآيات القرآنية لمزيد من التأكيد والتوضيح، مع اختيار الكلمات والعبارات المناسبة المليئة بنصح وإرشاد، وفي بعض الأحيان يستغيث بهم على السير على السنة والشريعة الإسلامية الغراء. ونذكر هنا رسالته الطويلة التي أرسلها إلى الخان الأعظم ميرزا كوكا، موضحًا أحوال الإسلام والمسلمين السيئة وغربة الإسلام في الدولة الإسلامية والعراقيل في تطبيق الشريعة الإسلامية، فيقول: «أيدكم الله سبحانه ونصركم على أعداء الإسلام في إعلاء الأحكام، قال المخبر الصادق الأمين (عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها ومن التسليمات أكملها): إنَّ الإسلامَ بدأ غريبًا وسيعودُ غريبًا كما بدأ فطوبَى للغرباءِ»[17].

بلغت غربة الإسلام حدًا يطعن الكفار في الإسلام بين ملء، ويذمون المسلمين ويجرون أحكام الكفر بلا تحاش، ويمدحون أهله في الأزقة والأسواق، والمسلمون عاجزون ممنوعون من إجراء أحكام الإسلام، ومطعون فيهم في إتيان أحكام

---

[16] راجع: المكتوبات، مكتوب رقم (195)، جـ1، ص226.

[17] مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1374هـ. رقم الحديث (145).

(c) www.nidaulhind.com

الشرائع عند هؤلاء الكفرة اللئام (...) وقد قيل: الشرع تحت السيف وجعل رونق الشرع الشريف مربوطًا بالملوك والسلاطين، والآن قد انعكست القضية وانقلبت المعاملة في هذا الزمان وا حسرتاه (...) ونحن اليوم نعد وجودكم الشريف مغتنمًا. ولا ندري من المبارز في هذه المعركة الضعيفة المنكسرة غيركم، والله سبحانه يكون مؤيدكم وناصركم بحرمة النبي وآله الأمجاد (عليه وعليهم الصلوات والتسليمات والتحيات والبركات)»[18].

ووضع السرهندي القضية نفسها والأزمات التي يمر بها المسلمون -آنذاك- في رسالة أخرى، فيقول: «بحكم (الشريعة تحت السيف) رواج الشريعة الغراء مربوط بحسن اهتمام السلاطين العظام. وهذا المعنى قد طرأ عليه الضعف منذ أوقات، فصار الإسلام ضعيفًا بالضرورة، وطفق كفار الهند يهدمون المساجد بلا خوف وخطر ويعمرون في مواضعها معابدهم، فكان هناك مسجد في تهانيسر فهدموه وبنوا موضعه معبدًا هندوسيًا كبيرًا. وأيضًا الكفار يقومون بمراسم الكفر والإلحاد على الملأ كما شاؤوا، والمسلمون عاجزون عن إجراء أحكام الإسلام، وفي أيام صيام الديانة الهندوسية يهتمون بألا يطبخ ولا يبيع أحد من المسلمين خبزًا في أسواق بلاد المسلمين، وفي شهر رمضان المبارك يطبخون الخبز والطعام على الملأ ويبيعون، ولا يقدر أحد من ضعف الإسلام على منعه...»[19].

السرهندي والشريعة الإسلامية

تمدنا مكتوبات السرهندي بمواد مهمة فيما يتعلق بتبني الوسائل العديدة لترويج الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامي بين الكوادر الحكومية المهمة. وفي معظم هذه الرسائل المرسلة إلى أركان الدولة، عبّر عن قلقه الشديد بغربة الإسلام، ومهانته، وقلة حيلته، وانتهاك حرمات الشعائر الإسلامية، والأحكام الدينية، وهوان المسلمين وإلجام ألسنتهم أن تنطق بالحق. ووجههم -باستخدام مناصبهم

(18) راجع: المكتوبات، مكتوب رقم (65)، جـ1، ص110-111.

(19) راجع: المكتوبات، مكتوب رقم (92)، جـ2، ص196-199.

(c) www.nidaulhind.com

الكبيرة، ومكانتهم الخطيرة، وخدماتهم العظيمة للدولة- إلى أن يلفتوا نظر السلطان إلى الأوضاع المتردية، وما يعاني الإسلام فيه من غربة، وأن يثيروا فيه عرقه الإسلامي الذي ورثه عن آبائه، ويوقظوا الحمية الدينية من سباتها، فهذا كل ما نراه في الرسائل المرسلة إلى هذه الشريحة المهمة من المجتمع الهندي. وللعلم فإن هؤلاء الأمراء وأركان الدولة الذين اختارهم الشيخ السرهندي بين الآخرين يعتقدون في الشيخ أيضًا وكانوا متأثرين بفكره ومنهجه. وخوفًا من الإطالة نحن نختار هنا فقط بعض الوزراء والأمراء الكبار الذين أرسل إليهم الشيخ السرهندي مكتوبات عديدة ومهمة لتفعيل النشاطات الدينية، وتوسيع نطاق سيادة الفكر الإسلامي في شبه القارة الهندية. ومنهم النواب فريد مرتضي خان البخاري المتوفى عام 1025هـ/ 1615م[20]، وعبدالرحيم خانخانان (أي أمير الأمراء) المتوفى عام 1036هـ/ 1626م[21]، ومرزا عزيز كوكا خان أعظم المتوفى 1033هـ/ 1623م[22]،

---

(20) الأمير الكبير مرتضي بن أحمد بن أبي بكر بن جلال بن إله ديا بن لطف الله بن بهاء الدين بن أبي الغيث بن محمد غوث بن جلال الدين حسين بن علي الحسيني البخاري، نواب فريد الدين مرتضي خان كان يعتبر أحد أجواد الدنيا، ولم يكن له نظير في زمانه في السياسة والتدبير والسخاء والكرم والمحبة لأهل الفضائل والميل إلى معالي الأمور. وكان المير بخشي في عهد السلطان أكبر، ولما جلس السلطان جهانگير بن أكبر على كرسي الحكم أضاف في منصبه ولقبه بصاحب القلم والسيف، ثم لقبه بمرتضي خان وولاه على الكجرات، فاستقل بها أربعين عامًا، ثم ولي على البنجاب فأقام بها مدة حياته. وكان رجلًا سخيًا ومحبًا للعلم والعلماء والفقراء والمساكين واليتامى. وكان يكفل اليتامى ويربيهم كتربية الآباء للأبناء ويزوج البنات العوانس، ويجهز لهن، وكان يأكل على مائدته قرابة ألف وخمسمائة نفر كل يوم. لمزيد من التفصيل حول حياته وأعماله الخيرية، راجع: صمصام الدولة: مآثر الأمراء، جـ2، ص418-423/ أيضًا عبدالحي الحسني: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، جـ2، ص647-648.

(21) الأمير الكبير مبارز الدين عبدالرحيم بن بيرم خان الدهلوي الملقب بخانخانان. وكان مربيًا للعلماء والفضلاء مما أدى إلى جمع من رجال العلم والمعرفة ما لم يجتمع عند غيره من الملوك والأمراء. وكان من أهل التفنن في الفضائل والعلوم وماهرًا في اللغات العديدة ومنها العربية والفارسية والتركية والهندوستانية وغيرها، مقدمًا في المعارف متكلمًا في أنواعها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب من الخطأ. ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة والحلم والتواضع والشجاعة والكرم. جعله السلطان أكبر معلمًا لولده جهانگير، وبسبب أعماله العسكرية الناجحة لقبه بخانخانان أي أمير الأمراء. وكان يؤلف ويترجم الأعمال التاريخية والأدبية من وإلى اللغة التركية والفارسية. ومن مؤلفاته القيمة «توزك بابري» نقله من التركية إلى الفارسية. راجع: ترجمته، صمصام الدولة: مآثر الأمراء، جـ1، ص479-492؛ راجع أيضًا: عبدالحي الحسني: الإعلام، جـ2، ص560-561.

(22) الأمير الكبير الفاضل عزيز الدين بن شمس الدين محمد الغزنوي ثم الدهلوي، أحد الرجال المشهورين في الهند، كان معاصرًا للسلطان أكبر. وأخاه في الرضاعة، وكان السلطان أكبر يحبه حبًا مفرطًا ويقدمه في كل باب، وكان متسامحًا معه إلى أقصى درجة. تولى على الولايات العديدة وبسبب أعماله العسكرية والإدارية لقبه السلطان أكبر بالخان الأعظم. سافر مع أهله إلى الحرمين الشريفين عام 1002هـ، لأداء مناسك الحج والعمرة، فحج وزار وبذل أموالًا طائلة على الفقراء والمساكين في الحرمين الشريفين ووظف للناس من مجاوري الروضة المنورة، واشترى عروضًا وعقارًا في المدينة المنورة ووقفها. بعد عودته من الحج عام 1003م جعله السلطان وكيلًا مطلقًا له في مهمات الأمور. وكان حسن المحاضرة جيد القول، راعي العلماء والفضلاء، وكان ينتقد السلطان انتقادًا شديدًا فيما قام به الأخير من تأسيس الدين الجديد ونشر الأفكار الجديدة. لمزيد من المعلومات عنه، راجع: صمصام الدولة، مآثر الأمراء، جـ1، ص467-478؛ أيضًا عبدالحي الحسني: الإعلام، جـ2، ص586-587.

(c) www.nidaulhind.com

وميران صدر جهان الحسيني البهانوي المتوفى 1020هـ/ 1611م[23]، محمد قليج خان الأندجاني الأكبري المتوفى عام 1023هـ/ 1614م[24]، مرزا داراب خان ابن عبدالرحيم خانخانان المتوفى عام 1034هـ/ 1624م[25]، خواجة دوست محمد كابلي (خواجه جهان)[26]، لاله بيگ[27]، وغيرهم من الوزراء الكبار والصغار. وإن عددًا كبيرًا من هذه المكتوبات بعث بها الشيخ السرهندي إلى الأمير السيد فريد البخاري وعبدالرحيم الخانخانان، والتي لها أهمية بالغة لما تشمله من الموضوعات الدينية والفكرية التي تناولها الشيخ فيها. وهناك مكتوب خاص يقع في إحدى عشرة صفحة من القطع الكبير، والذي أرسله السرهندي إلى خان جهان وضح فيه العقيدة الإسلامية الصحيحة، والعبادات والأحكام الشرعية، ومقاصد الشريعة وكيفية ترويجها في الإدارة والمجتمع، مع دعوته إلى إلقاء كلمة الحق على سمع السلطان[28].

وكان السرهندي يرى أن عملية تفعيل النشاطات الدينية وتطبيق الشريعة الإسلامية ورواجها مربوط بالإدارة وأعيان الدولة وحسن اهتمامهم نحوها، ومع أن العلماء والدعاة يقومون بترويج الدين والشريعة الإسلامية، فإن الإدارة الإسلامية والسلاطين وأركان الدولة يقدمون لهم كل الدعم المادي والمعنوي لتحقيق هذه البغية النبيلة[29]. وقد قام السرهندي أولًا بتوضيح أهمية الدعوة الإسلامية وضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية لدى هذه الشريحة الإدارية، مؤكدًا لهم أن العمل الدعوي إلى الشريعة الإسلامية عمل الأنبياء والرسل على أساس أن النجاة فيها ومنها،

---

(23) الشيخ العالم الفقيه المفتي صدر جهان بن عبدالمقتدر بن شاهين بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن سراج الدين بن تاج الدين بن عليم الدين بن كمال الدين الحسيني الترمذي. كان من العلماء البارزين في العلوم الإسلامية والعربية. تقلد المناصب العديدة في عهد السلطان أكبر الذي جعله معلمًا لابنه جهانگير الذي حفظ عنه أربعين حديثًا. وفي عهد الأخير نال المناصب الأخرى إلى جانب الصدارة. وعاش مئة وعشرين عامًا مع صحة حواسه وسلامة أفعاله. راجع: البدايوني: منتخب التواريخ، جـ3، ص478؛ أيضًا عبدالحي: الإعلام، جـ2، ص542-543.

(24) راجع: ترجمته في صمصام الدولة، مآثر الأمراء، جـ3، ص49-53.

(25) راجع: ترجمته في صمصام الدولة: مآثر الأمراء، جـ2، ص14.

(26) راجع: ترجمته في صمصام الدولة، مآثر الآمراء، جـ1، ص465-466.

(27) المرجع السابق، ص355-356.

(28) ـــــ راجع: المكتوبات، جـ2، مكتوب رقم (67)، ص159-169.

(29) راجع: المكتوبات، جـ2، مكتوب رقم (92)، ص198-199.

(c) www.nidaulhind.com

مجملًا أن المقصد في إرسال الأنبياء والرسل هو التبليغ والدعوة الإسلامية، ومن هنا يجب أن يكون المقصد الأول والأخير هو السعي الحثيث إلى ترويج الإسلام والشريعة وإحيائها، لا سيما في هذا الزمن العصيب.

يقول: «الملة المصطفوية قائمة بالشريعة، والناس إنما يسألون يوم القيامة عن الشريعة دون التصوف (...) والأنبياء والرسل الذين هم أفضل الكائنات إنما دعوا الخلق إلى الشرائع وجعلوا مدار النجاة عليها. والمقصود من بعثة هؤلاء الأكابر هو تبليغ الشرائع. فأعظم الخيرات -إذن- هو السعي في ترويج الشريعة وإحياء حكم من أحكامها، لا سيما في الزمن الصعب الذي انهدمت فيه شعائر الإسلام»[30].

ولترسيخ مبدأ تطبيق الشريعة وأهميتها في قلوبهم وتحريضهم على المبادرة إليها، قال الشيخ في المكتوب نفسه: «لو أنفق ألوفًا في سبيل الله لا يساوي ذلك ترويج مسألة من المسائل الشرعية، فإن في هذا الفعل اقتداء بالأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) الذين هم أعظم المخلوقات ومشاركة معهم في عملية التبليغ، ومن المقرر أن أكمل الحسنات مسلّم لهم وإنفاق الألوف ميسر لغير هؤلاء الأكابر أيضًا (...) نعم إن كان الإنفاق لتأييد الشريعة وترويج الملة فله درجة عليا، وإنفاق فلس بهذه النية يساوي إنفاق ألوف في سائر الأمنية...»[31].

عبر السرهندي عن أسفه الشديد في المكتوب التالي عما جرى في عهد السلطان أكبر مع الدين الإسلامي الذي صار غريبًا، فشكا ذلك الشيخ في أحد مكتوباته الموجهة إلى النواب فريد للحث على تصحيح العقائد والإغراء على ترويج الشريعة والثقافة الإسلامية، فيقول: «سيدي الشريف! إن الإسلام غريب في هذا الزمان جدًا؛ فصرف فلس واحد في تقوية الإسلام في هذا الزمان يساوي الملايين، فلننظر من يكون ذلك الصقر الجريء الذي ينعم الله عليه بهذه النعمة الجليلة، إن العمل الذي يقوم به الإنسان لنشر الدين وتأييد الملة -في أي عصر من العصور-

---

[30] راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (49)، ص92-93.

[31] راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (49)، ص92.

(c) www.nidaulhind.com

جميل ومحبوب، ولكن في هذا الوقت العصيب، حيث صار الإسلام غريبًا. أجمل وأحب، فجدير بكم -أنتم الأشراف- إذ إن هذه الثروة العظيمة من ميراثكم. وهو لكم مباشرة، ولغيركم بواسطة، وإن وراثتكم لجدكم الكريم لها أهميتها الكبيرة في نيل هذه السعادة، فإن هذه الساعة هي التي ورد عنها ذلك الحديث: (عن أبي هريرة قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إِنَّكُمْ في زمانٍ مَنْ تَرَكَ منكم عُشْرَ ما أُمِرَ به أُهْلِكَ، ثُمَّ يأتي زمانٌ مَنْ عمِلَ منهم بعُشْرِ ما أُمِرَ بِهِ نَجَا)، فإن هذه الجماعة من الناس، هي تلك الجماعة، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون»[32].

ثم يرجع فيدعو إلى التشمير عن ساعديهم ومواجهة الصعوبات التي ستأتي في سبيل تحقيق هذه الغايات النبيلة المرجوة فيقول: «... فإن حصلت الأذية والمشاكل في سبيل التبليغ والدعوة، فينبغي أن يعدها سعادة عظيمة، ألا ترى أن الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ماذا رأوا من الأذية والصعوبات وكم تحملوا من المحن حتى قال أفضلهم (عليه الصلاة والسلام) ما أوذي نبي قط مثل ما أوذيت»[33].

ونرى في مكتوباته كافة أنه اهتم بالشريعة الإسلامية في مهمته لإصلاح الفكر الإسلامي لدى الإدارة المغولية. ومن هنا نجد أنه قام في معظم هذه المكتوبات بشرح وتوضيح النكات المهمة المتعلقة بالشريعة الإسلامية لتفهيم الناس المعنية، ولا ريب أن كل مسلم يحتاج إلى فهم المسائل الدينية المهمة لممارستها بأحسن وأدق صورة. وقد قسم السرهندي الشريعة إلى ثلاثة أقسام: الأول: العلم، والثاني: العمل، والثالث: الإخلاص. ولن يتحقق المقصود دون أن تتعلق هذه الأمور الثلاثة بالشريعة، ثم ولا بد للإنسان منها كلها حتى تتيسر النجاة الأبدية[34]. وكان يلح على الوزراء والأمراء والإداريين أن يتعلموا ويلموا بالمسائل الشرعية الضرورية وتصحيح العقائد وإتيان الأعمال الصالحة وترويجها بين الآخرين. وقد كتب مكتوبًا إلى أحد الإداريين

---

(32) راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (193)، ص223-224/ والحديث المذكور ضعيف، راجع: محمد ناصر الدين الألباني: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، تحقيق: زهير الشاويش، ط2: المكتب الإسلامي، بيروت، 1408هـ، رقم الحديث (2038).

(33) راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (193)، ص225/ «ما أُوذِيَ أحدٌ ما أُوذِيتُ» محمد بن طاهر المقدسي القيسراني: تذكرة الحفاظ، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط: دار الصميعي - الرياض عام 1415هـ، رقم الحديث (274).

(34) راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (59)، ص102-104.

(c) www.nidaulhind.com

فيقول: «إنه لا بد من تعلم أحكام الفرائض والسنن والواجبات والمستحبات والحلال والحرام والمشتبهات، ويتم الأعمال كلها بموجب هذه الأحكام المذكورة»[35]. وكان يتوقع من الأمراء والوزراء المقربين إلى السلطان أن يخبروه عن الأحكام الشرعية كلما سنحت لهم الفرص.

كان يعتقد أن كثيراً من التأثيرات الهندوسية رسوم الكفر والشرك جارية وسارية في البلاط الملكي وفي الإدارة؛ وذلك بسبب عدم معرفة السلطان وفهمه لما يجري في البلاط، ومن هنا يجب على العلماء والأمراء أن يخبروه عن ذلك. وفي هذا الصدد يكتب في إحدى رسائله الموجهة إلى الشيخ النواب فريد فيقول: «... بقايا رسوم الكفر التي ظهرت في القرن السابق تثقل على قلوب المسلمين جدًا، ولم يبق لسلطان الوقت توجه إلى أهل الكفر في هذا الوقت، ومن هنا فإنه من اللازم لمن يقدر من المسلمين إعلام السلطان بقبح رسوم الهندوسية، وبذل كل الجهود في إزالتها، فإن بقاءها يحتمل أن يكون مبنيًا على عدم معرفة السلطان وعلمه بقبحها...»[36].

لم يكتفِ السرهندي بدعوة الأمراء والوزراء إلى تعليم أحكام الشريعة فحسب؛ بل أشار عليهم أيضًا باختيار الكوادر من العلماء الفضلاء المتقين المؤهلين المخلصين للدين والدولة وتعيينهم في البلاط الملكي. ووضح موقفه من علماء السوء مشيرًا على الإداريين بعدم الالتفات إلى علماء الدنيا المستغلين علمهم ودينهم لكسب المال والشهرة والمستخدمين علمهم ومنصبهم لتحقيق مصالحهم الخاصة على حساب الدين، مؤكدًا أنهم هم الذين يسببون للمسلمين والإسلام بمحن وويلات وكوارث وإساءات كبيرة. يقول في مكتوبه ناصحًا أحد الإداريين: وينبغي الاستفسار عن الأحكام الشرعية والاستفتاء فيها من علماء الآخرة؛ فإن لكلامهم تأثيرًا فعسى أن يحصل التوفيق للعمل بها ببركة أنفاسهم. وينبغي الاجتناب لعلماء الدنيا الذين جعلوا العلم وسيلة للجاه والمناصب. وفي حالة عدم وجود مثل هؤلاء العلماء الربانيين المتقين فمن الممكن الرجوع إلى علماء الدنيا، ولكن ينبغي أن يكون ذلك في إطار معين

---

[35] راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (94)، ص140.

[36] راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (193)، ص224.

(c) www.nidaulhind.com

وعند الضرورة فقط. وللعلم، إن الحاج ميان محمد الأترة من العلماء المتدينين في منطقة لاهور وهو مما تعرفونه جيدًا، وهناك الشيخ علي الأترة وهو من أحبابكم، وكل من هذين الشخصين مغتنم في تلك المنطقة والرجوع إليهما في تحقيق المسائل الشرعية أنسب...»[37].

وهذا التوضيح من جانب السرهندي يدل على أنه كان يرى أن العلماء الصالحين هم الملجأ والمأوى لتحقيق الغايات الشرعية، ويجب أن يتم الاستلهام منهم في هذا الباب، ويدل أيضًا على أنه كان بمعرفة جيدة بالعلماء الصالحين والطالحين في المناطق الهندية.

وتجدر الإشارة إلى أن السرهندي لم يدع إلى الحصول على أحكام الشريعة وتنفيذها وتطبيقها وترويجها على أرض الواقع مع توضيح كيفية تنفيذها فحسب؛ بل كان يصر على أنها يتم تطبيقها وممارستها في الحياة اليومية الرتيبة. وهذه هي النقطة المهمة التي يركز عليها ويهتم بها، ويضع جل اهتمامه في معظم المكتوبات التي تحدث فيها عن الشريعة الإسلامية وأحكامها. وهذه هي النقطة المحورية التي ناقشها كثيرًا في المكتوبات المرسلة إلى الأمراء والعلماء والصوفية وهي مشتركة بينهم. فكما أنه نصح العلماء باتباع الشريعة وتحمل المسؤولية بنشرها وترويجها في المجتمع الهندي من ناحية، انتقد الحكماء والفلاسفة بعدم تبعية الشريعة الغراء من ناحية أخرى، مع التأكيد على الصوفية بأن الطريقة والحقيقة خادمتان للشريعة وليس العكس بالعكس. ويوضح ذلك في إحدى رسالاته المرسلة إلى بعض الصوفية فيقول: «اعلم أن للشريعة ثلاثة أجزاء: العلم والعمل والإخلاص. وإذا لم يتحقق كل من هذه الأجزاء الثلاثة لا تتحقق الشريعة، ومتى تحققت الشريعة فقد تحقق رضا الحق سبحانه وتعالى الذي هو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية ورضوان من الله أكبر. فكانت الشريعة متكفلة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية، ولم يبق مطلب يقع فيه الاحتياج إلى ما وراء الشريعة. أما الطريقة والحقيقة اللتان امتازت بهما الصوفية فهما خادمتان للشريعة في تكميل جزئها الثالث وهو الإخلاص،

(37) راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (73)، ص122.

(c) www.nidaulhind.com

فالمقصود من تحصيل كل منهما تكميل الشريعة لا أمراً آخر وراء الشريعة»[38].

وتجدر الإشارة هنا إلى النقطة المهمة، وهي أن الرسائل التي أرسلت إلى الأمراء والوزراء الذين كان معظمهم ينتمون إلى الطريقة النقشبندية، كان السرهندي يروج الأفكار الصوفية بينهم وينصحهم بإصلاح الباطن مؤكدًا أنه يمر بطريقة الشريعة المطهرة ودون السير عليها من المستحيل أن يصل أحد إلى المنزل المقصود. يوضح ذلك في أحد مكتوباته المرسلة إلى بعض الإداريين: «ينبغي أن يكون المرء متوجهًا إلى الباطن بعد أن جعل الظاهر محلى بإتيان الأحكام الشرعية لئلا يكون العمل مختلطًا بالغفلة. والتحلي بالأحكام الشرعية بدون إمداد الباطن متعذر، ووظيفة العلماء الإفتاء، وشغل أهل الله العمل، والاهتمام في الباطن مستلزم للاهتمام في الظاهر، والذي يهتم بالباطن ويعجز عن الظاهر فهو ملحد (...) وعلامة صحة حال الباطن تحلي الظاهر بالأحكام الشرعية (...) والله سبحانه الموفق»[39].

وينصح بعض الإداريين حول ذلك فيقول: «أيها الولد: إن الذي ينفع الإنسان غدًا هو متابعة صاحب الشريعة (عليه الصلاة والسلام والتحية)، فإن اجتمعت الأحوال والمواجيد والعلوم والمعارف والإشارات والرموز مع تلك المتابعة فبها ونعمت وإلا فلا شيء سوى الخذلان والاستدراج...»[40]. ثم يوضح هذه النقطة أكثر في الرسالة الأخرى المرسلة إلى النواب الشيخ فريد فيقول: «... والناس إنما يسألون يوم القيامة عن الشريعة دون التصوف، وكل من دخول الجنة وتجنب النار مربوط بإتيان الشريعة...»[41].

إلى جانب قيام السرهندي بتلقين أركان الدولة تطبيق الشريعة وتنفيذها والسير عليها، يوجههم إلى أداء الفرائض والسنن. وكل ما قدمه في هذا الباب مهم للغاية. وقد حث في رسائل عديدة على اتباع الأنبياء والرسل مع توضيح التكاليف

---

[38] راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (36)، ص72-73.

[39] راجع: المكتوبات، جـ2، مكتوب رقم (87)، ص193-194.

[40] راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (185)، ص216.

[41] راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (48)، ص92.

(c) www.nidaulhind.com

الشرعية من الفرائض، أي الأركان الأربعة والأحكام العادية المتعلقة بالمعيشة، مؤكدًا أنها وضعت من جانب الله تعالى الذي يراعي في كل كبيرة وصغيرة ضعف الإنسان واحتياجاتهم البشرية الطبيعية، ومن هنا فالدين والفرائض والأحكام الضرورية وضعت لليسر وليس للعسر، لأن اليسر مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، جعله الله تعالى أساسًا لكل ما أمر به ونهى عنه في كتابه وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)، وأمرنا بأن نلتزمه في فهمنا للدين والعمل به والدعوة إليه: فقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: 185). ويوضح الشيخ السرهندي ذلك في أحد مكتوباته التي أرسلها إلى الوزير خانخانان فيقول: «... ومن كمال عناية الحق سبحانه وتعالى رعاية نهاية اليسر وغاية السهولة في جميع التكاليف الشرعية والأحكام الدينية؛ حيث إنه أمر -مثلًا- بسبع عشرة ركعة من الصلاة في الليل والنهار، لا يبلغ مجموع أوقات أدائها ساعة واحدة، ومع ذلك اكتفى في قراءتها بما تيسر، وجَوَّز القعود عند تعذر القيام والاضطجاع عند تعذر القعود، وأمر بالإيماء عند تعذر الركوع والسجود، وجعل التيمم خلفاً للوضوء وقت العجز عن استعمال المياه، وعين للفقراء والمساكين حصة واحدة من أربعين حصة في زكاة الأموال، وقيد افتراضها أيضًا بكون الأموال نامية والأنعام سائمة، وفرض في جميع العمر حجًا واحدًا، ومع ذلك جعله مشروطًا بالقدرة على الزاد والرحلة وأمن الطريق، ووسع دائرة المباح حيث أباح نكاح أربع من النساء ومقدار ما يملكه ويقدر عليه من السراري، وجعل الطلاق وسيلة لتبديل النساء، وجعل أكثر الأطعمة والأشربة والأقمشة مباحًا، وجعل المحرم منها قليلًا وتحريمه أيضًا بواسطة مصالح العباد...»[42].

ووضح السرهندي أن هناك أقسامًا مختلفة للشريعة الإسلامية توجد فيها أنواع مختلفة من العبادات، وركز على هذه النقطة المحورية مع توضيح أهمية وفضل كل من الفرائض والنوافل في الشريعة الإسلامية، مؤكدًا أن لكل واحد مقامًا ومرتبة ولم ولن تأتي النوافل في مرتبة الفرائض، ويوضح ذلك في أحد مكتوباته، فيقول: «...

(42) راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (191)، ص221.

(c) www.nidaulhind.com

واعلم أن مقربات الأعمال إما فرائض وإما نوافل، فالنوافل لا اعتبار لها في جنب الفرائض أصلًا، فإن أداء فرض من الفرائض في وقت من الأوقات أفضل من أداء النوافل ألف سنة، وإن أديت بنيّة خالصة أي نفل كان من الصلاة والصوم والذكر والفكر وأمثال ذلك...» ولتأكيد ذلك ينقل الشيخ كلام سيدنا عمر (رضي الله عنه) حول ذلك، حيث نقل أنه (رضي الله عنه) صلى يومًا صلاة الصبح بجماعة ثم نظر إلى القوم وتفقدهم فلم ير فيهم شخصًا من أصحابه، فقال: ألم يحضر فلان الجماعة؟ فقيل: إنه يسهر أكثر الليل فيحتمل أن يكون قد غلبه النوم في هذا الوقت. فقال: لو نام تمام الليل وصلى صلاة الصبح مع الجماعة لكان أولى وأفضل. ومن هنا فرعاية الأولى واجتناب المكروه وإن كان تنزيهيا أولى من الذكر والفكر والمراقبة والتوجه بمراتب كثيرة (...) فكما أن التصدق بدانق مثلًا في حساب الزكاة أفضل بمراتب من التصدق بمقدار جبال عظام من ذهب بطريق النفل...»[43].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ السرهندي في كثير من مكتوباته يشير إلى كل من العلماء والأمراء بالمعرفة عن أهمية الفرائض وتنفيذها بصورة كاملة وصحيحة، ولكنه يهتم بها أكثر في الرسائل المرسلة إلى الصوفية، مما يدل على أن النوافل كانت لها أهمية خاصة في ذلك الوقت لدى الصوفية، وكانوا يحرصون على الاهتمام بها دون إعطاء الاهتمام الكبير واللائق بالفرائض، وكانوا ينصحون تلامذتهم ومريديهم بذلك، ويبدو أنه في تلك البيئة الدينية ما كانت الفرائض تجد مقامها المستحق، وقد شعر الشيخ باختلال التوازن في باب العبادات فتوجه إلى هذه الشرائح بها. والفرائض التي يؤكدها السرهندي أكثر في الرسائل المرسلة إلى الأمراء والوزراء هي الصلاة والزكاة. ويعبر عن موقفه منهما في إحدى رسالاته قائلًا: «... واعلم: أن الإنسان لا بد له من تصحيح الاعتقادات، كذلك لا بد له من إتيان الأعمال الصالحات. وأجمع العبادات وأقرب الطاعات هو أداء الصلاة كما قال (عليه الصلاة والسلام): «الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين»[44]. ومن وفق للمواظبة على أداء الصلاة فقد امتنع

(43) راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (29)، ص54.

(44) لم أقف عليه بهذه العبارة الكاملة، ولكني وقفت على أوله «الصلاة عماد الدين». ويؤدي معناه ما أخرجه الترمذي (2616) وابن

(c) www.nidaulhind.com

عن الفحشاء والمنكر وقوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت: 45)، مؤيد لهذا الكلام، والصلاة التي ليست بهذه المثابة، يعني لم تمنع صاحبها عن الفحشاء والمنكر، فهي صورة صلاة لا حقيقةَ لها، ولكن ينبغي أن لا تترك الصورة إلى أن تحصل الحقيقة؛ فإن ما لا يُدرك كلُّه لا يُترك كلُّه، ولا يستبعد اعتبار أكرم الأكرمين الصورة وأن يقبلها مكان الحقيقة. فعليكم بالمواظبة على أداء الصلاة مع الجماعة ومع الخشوع والخضوع فإنها سبب النجاة والفلاح، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون: 1-2)»[45].

وتدل هذه العبارة أيضًا على أن السرهندي ما كان يصر على أداء الصلوات فحسب؛ بل كان يبغي أن تؤدى الصلوات الخمس بالجماعة، ووضح ذلك في رسائل عديدة[46].

وكذلك اهتم السرهندي بتوضيح أهمية بالغة لشهر رمضان الكريم لدى الإدارة المغولية وأركان الدولة. وفي إحدى رسائله المرسلة ردًا على رسالة الوزير النواب فريد البخاري، يذكر فضائل شهر رمضان ويحث على فعل الخير والأعمال الصالحة فيقول: «ولما ورد مكتوبكم الشريف في شهر رمضان المبارك خطر في الخاطر الفاتر أن أكتب نبذة حول فضائل هذا الشهر عظيم القدر. ينبغي أن يعلم أن شهر رمضان شهر عظيم. وكل عبادة نافلة من الصلاة والذكر والصدقة وأمثالها في هذا الشهر تساوي أداء فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، ومن فطر فيه صائمًا كان له مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار وكان له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجره شيء، ومن خفف عن مملوكه فيه غفر الله

ماجة (3973)، وأحمد (5/231، 237) من حديث معاذ بن جبل الطويل وفيه : «قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده، وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد...». قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(45) راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (85)، ص135-136.

(46) يقول في إحدى رسائله: «ينبغي أن تصرف الأوقات إلى ذكر الله تعالى بعد أداء الصلوات الخمس مع الجماعة وأداء السنن الرواتب، وأن لا يشتغل بغيره سواء كان وقت الأكل أو النوم أو المشي. وقد بين لكم طريق الذكر، فينبغي الاشتغال به بهذا الطريق المعهود...». راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (93)، ص140/ أيضًا يوضح السرهندي ذلك في مكتوب آخر فيقول: «وينبغي لك أن تكون مولعًا وحريصًا بتكرار ذكر القلوب معتقدًا أنه من أجل نعم الله جل شأنه، وأن تصلي الصلوات الخمس مع الجماعة من غير تكاسل وفتور، وأن تؤدي زكاة الأموال إلى الفقراء والمساكين بنشاط القلب، وأن تجتنب المحرمات والمشتبهات، وأن تكون مشفقًا على الخلق، وهذا هو طريق النجاة والخلاص». راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (189)، ص219.

(c) www.nidaulhind.com

له وأعتقه من النار (...) ومن وُفِّق للخيرات والأعمال الصالحة في هذا الشهر كان التوفيق رفيقه في تمام هذا العام، وإذا مر هذا الشهر على تفرقة يكون في جميع العام على تفرقة. ومن هنا ينبغي فيه أن يجتهد في تحصيل الجمعية مهما أمكن مغتنمًا لهذا الشهر...»[47].

ولما كانت الزكاة إحسانًا إلى الخلق، وهي مُطهِّرةٌ للمال من الدنس، وحصانة له من الآفات، وعبودية، وتطهير للنفوس من الشح والبخل، وامتحان للأثرياء والأغنياء حيث يستطيعون أن يتقربوا إلى الله بإخراج شيء معين من مالهم المحبوب إليهم. تفيد كثير من مكتوباته بأنه اهتم أكثر بتوضيح وتأكيد أهمية الزكاة لدى أركان الدولة والأغنياء والأثرياء. وفي هذا الصدد حاول الشيخ ترسيخ الفكر الإسلامي حول اجتناب المظاهر في توزيع الأموال والأرزاق على الفقراء والمساكين لنيل الاستحسان والشهرة بين أقرانهم، داعيًا لهم إلى أداء الزكاة بصورة صحيحة وصرفها على المحتاجين لابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى كما جاء في الشريعة الإسلامية. ويبدو من بعض مكتوباته أن التقاليد في توزيع الأموال على الناس والفقراء والمساكين بمناسبات مهمة، كانت راسخة في الآداب السلطانية المغولية وصارت ظاهرة لدى أركان الدولة، فكانوا يقومون بذلك لكسب الشهرة وفي الوقت نفسه كانوا مقصرين في أداء واجبهم على النحو المطلوب في أداء الزكاة وصرف أموالها بأحسن صورة. وتعكس هذه الصورة في إحدى مكتوباته نصح الشيخ فيه أركان الدولة والأغنياء والأثرياء حول أداء الزكاة فيقول: «... وينبغي الاهتمام التام بأداء الفرائض والاحتياط في الحل والحرمة والعبادات النافلة في جنب الفرائض، كالمطروح في الطريق، وساقطة عن الاعتبار، وأكثر الناس في هذا الوقت في ترويج النوافل وتخريب الفرائض يهتمون بإتيان النوافل والعبادات ويعدون الفرائض حقيرة وعديمة الاعتبار. ويعطون مبلغًا كبيرًا للمستحق وغير المستحق في المناسبات وفي غير المناسبات، ولكن إعطاء فلس في أداء الزكاة للمصرف متعسر عليهم، ولا يدرون أن إعطاء فلس من الزكاة للمصرف خير لهم من إعطاء ألوف صدقة نافلة، فإن في

[47] راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (45)، ص87-88.

(c) www.nidaulhind.com

إعطاء الزكاة مجرد امتثال أمر المولى جل سلطانه، وفي الصدقة النافلة كثيرًا ما يكون المنشأ الهوى النفسيُّ، ولهذا لا مساغ للرياء في الفرض. وأما النفل ففيه مجال للرياء ومن ههنا كان الأولى في أداء الزكاة الإظهار لنفي التهمة وفي الصدقة النافلة الإخفاء لكونه أليق بالقبول. وبالجملة لا بد من التزام الأحكام الشرعية حتى يتصور الخلاص من مضرة الدنيا، فإن لم تتيسر حقيقة ترك الدنيا ينبغي أن لا يقصر في الترك الحكمي، وهو التزام الشريعة في الأقوال والأفعال والله سبحانه الموفق...»[48].

دعوة أركان الدولة لوجوب أداء الفرائض

ومن هنا نرى أن السرهندي حاول بشتى الطرق أن يلتزم أركان الدولة والأغنياء بأداء الفرائض ومنها الزكاة، وبين لهم الطرق السهلة لأداء الزكاة والفرائض الأخرى. وفي إحدى رسالاته الموجهة إلى بعض الأمراء أكد الشيخ فيها أهمية الصلاة والزكاة مع وضع الخطة الشاملة لأداء الزكاة بطريقة سهلة وميسرة. فيقول: «عليكم أن تؤدوا الصلوات الخمس مع الجماعة، فإن تيسر قيام الليل وصلاة التهجد فنعمت السعادة، وأداء زكاة الأموال أيضًا من أركان الإسلام، فلا بد من أدائها البتة. وأسهل طرق أدائها أن يعزل حق الفقراء من المال في كل سنة بنية الزكاة فيحفظه عنده ويصرفه في مصارف الزكاة في تمام السنة، فعلى هذا التقدير لا يلزم تجديد نية أداء الزكاة في كل مرة، بل تكفي النية وقت العزل مرة واحدة. ومن المعلوم أنه كم يصرف إلى الفقراء والمستحقين في طول العام، ولكن لما لم يكن بنية أداء الزكاة لم يكن محسوبًا منها، وفي الصورة المذكورة تسقط الزكاة من الذمة ويحصل التخلص أيضًا من الخرج من غير مضايقة، فإن لم يصرف للفقراء في تمام السنة مقدار الزكاة بل بقيت منها بقية ينبغي أن يحفظها كذلك معزولة عن سائر الأموال، فإن مثل هذا العمل يحتاج إليه في كل عام، ومتى كان مال الفقراء ممتازًا ومعزولًا فعسى أن يحصل التوفيق لإنفاقه غدًا وإن لم يحصل اليوم...»[49]. ويوضح من ذلك أن الشيخ لم يوصهم بأداء الزكاة فحسب؛ بل بين لهم الطرق السهلة لتحقيق

(48) راجع: المكتوبات، جـ2، مكتوب رقم (82)، ص190-191.

(49) راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (73)، ص121-122.

(c) www.nidaulhind.com

هذه الغاية المرجوة مع قيامهم بتوزيع الأموال على الفقراء والمساكين. وتفيد كثير من مكتوباته بوجود التساهل الكبير لدى أركان الدولة في باب أداء الزكاة، ويؤكد قلق الشيخ الذي عبر عنه في هذه المكتوبات المرسلة إلى كبار أركان الدولة ومنهم الوزير عبدالرحيم خانخانان والشيخ النواب فريد البخاري وغيرهم. نصح الشيخ في إحدى رسالاته فيقول: «... ينبغي أداء الزكاة من الأموال النامية والأنعام السائمة كما هو حقها، وأن يجعل ذلك وسيلة لقطع التعلق عن الأموال والأنعام، وينبغي ألا يكون حظ النفس ملحوظًا ومنظورًا إليه في أكل الأطعمة اللذيذة ولبس الألبسة النفيسة، بل اللائق في استعمال الأطعمة والأشربة أن لا ينوي شيئًا غير حصول القوة لأداء الطاعات...»[50].

ويوجه دعوته إلى الأمراء الصوفية، مؤكدًا أن أداء الزكاة بموجب الشريعة الإسلامية أفيد لتزكية النفس ولإزالة الهوى النفساني، فيقول في إحدى رسائله: «... وكلما عمل شيئًا بمقتضى الشريعة يزول من الهوى النفساني بقدره، ولهذا كان فعل شيء من الأحكام الشرعية أفضل في إزالة الهوى النفساني من رياضات ألف سنة ومجاهداتها التي كانت من قبل النفس، بل هذه الرياضات والمجاهدات التي لم تقع على مقتضى الشريعة الغراء مؤيدة ومقوية للهوى النفساني. ولم تقصر البراهمة والجوگية في الرياضات والمجاهدات شيئًا، ولكنها لما لم تكن على وفق الشريعة، لم ينتفعوا بها أصلًا ولم يحصل لهم غير تقوية النفس وتربيتها. فمن صرف -مثلًا- دانقًا بنية أداء الزكاة التي أمر بها الشرع، فهو أنفع في تدريب النفس من صرف ألف دينار من قبل نفسه، وأداء ركعتي الفجر مع الجماعة التي هي فرض من الفرائض، أفضل من قيام تمام الليلة بالنافلة مع ترك الجماعة في الفجر...»[51].

وكان قد ذكر كثيرًا الجوانب السهلة لأداء الزكاة لترغيب أركان الدولة في ذلك. يقول: إنه ليس من المشكل أن يخرج المرء ربع العشر من أموالهم النامية والأنعام السائمة. وقد ركز في أحد مكتوباته على هذه النقطة فيقول: «... وينبغي

(50) راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (70)، ص115-116.

(51) راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (52)، ص94-95.

(c) www.nidaulhind.com

أن يتم أداء الزكاة على تقدير وجود النصاب من ضروريات الإسلام أيضًا. فينبغي إذًا أداؤها بكمال الرغبة بل بقبول المنة. وقد عين الحق سبحانه وتعالى بكمال كرمه للعبادة في اليوم والليلة خمسة أوقات، وعين من الأموال النامية والأنعام السائمة ربع العشر تحقيقًا وتقريبًا لأجل الفقراء، ووسع ميدان تصرف المباحات، والتكاسل في صرف ساعة واحدة مع أربع وعشرين ساعة في طاعة الحق سبحانه وتعالى، والبخل بأداء سهم واحد من أربعين سهمًا إلى الفقراء، ووضع القدم في خارج دائرة المباح الوسيعة الفضاء البعيدة الأرجاء والوقوع في المحرمات والمشتبهات من غاية عدم الإنصاف...»[52].

وفي بعض الرسائل المرسلة إلى الأمراء ناقش الشيخ أهمية الحج ومكانته كأركان الإسلام، وجلب انتباههم إلى ذلك، على الرغم من أنه لا توجد في مكتوباته الترغيبات والتأكيدات، مثلما نجدها فيما تناولها حول الصلاة والزكاة والصيام. وتفيد بعض المصادر النقشبندية بأنه خرج من بلده عازمًا على أداء مناسك الحج، وذلك بعد وفاة أبيه عام 1007هـ/ 1598م، إلا أنه لما وصل إلى شيخه عبدالباقي بالله الذي قال له: «أنت ذاهب إلى زيارة بيت الله، ولكن لو مكثت هنا لبعض الأيام لكان ممكنًا أن تحصل على بغيتك مما ستطلبه في الحرمين الشريفين (...) وقال له: عليك أن تمكث فقط لثلاثة أيام، ولو ارتحت نفسيًا فتكمل، وإلا فستغادر للحرمين الشريفين...»[53].

وعلى حسب كلام السرهندي وصل هو إلى معدن الإرشاد ومنبع المعارف خلال فترة وجوده عند شيخه ومن خلاله، ومن هنا ربما لم يفكر بعد ذلك أن يغادر إلى الحرمين لأداء مناسك الحج والعمرة[54]. وللعلم فإن شيخه الباقي بالله أيضًا لم يفكر في أداء مناسك الحج، حتى تفيد بعض المصادر بأن الوزير الكبير عبدالرحيم خان خانان أرسل بمائة ألف روبية كنفقة السفر لأداء الحج لدى المعرفة عن عزم

(52) راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (96)، ص142-143.

(53) راجع: حضرات القدس، جـ2، ص11-12.

(54) راجع: المكتوبات الربانية، جـ1، مكتوب رقم (290)، ص423-435.

(c) www.nidaulhind.com

الشيخ على ذلك، فرفض الشيخ مساعدته المالية وأعادها إليه مع التوبيخ[55]. ولو كانت هناك بعض الظروف المادية الملائمة وغيرها في بداية أمر الشيخ السرهندي، لتحسنت كثيرًا حياته، لا سيما بعد تقوية علاقته مع بعض الوزراء الكبار الذين ساعدوه ماديًا في إدارة الخانقاه الذي أسسه في مدينته السرهند وعاش طول حياته فيها، فلماذا لم يفكر الشيخ السرهندي أن يسافر إلى الحرمين الشريفين لأداء مناسك الحج والعمرة؟! علمًا بأنه كان هناك رواج عام ورغبة شديدة عند المسلمين في الهند في ذلك الوقت في السفر إلى الحرمين الشريفين لتحصيل العلوم الإسلامية، لا سيما علوم الحديث، ولأداء مناسك الحج والعمرة، وهناك بعض الشخصيات المعاصرة للشيخ السرهندي الذين سافروا إلى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة ومكثوا لفترة لتحصيل علوم الحديث، ولهم دور كبير في نشر علوم الحديث في الهند، ومنهم على سبيل المثال الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي (958-1052هـ/ 1551-1642م)[56].

على كل حال، لا نجد في مكتوبات السرهندي ما يفيد بأنه حاول من خلال مكتوباته خلق الرغبة عند أركان الدولة وترشيدهم إلى تكميل هذا الركن من أركان الإسلام[57]. وفي الحقيقة لم يكن لدى الشيخ أحمد السرهندي رغبة في أداء مناسك الحج، وما كان ينوي أن يتخصص في علوم الحديث والفقه وغيرها من العلوم الإسلامية التي كانت تدرس في ذلك الوقت في الحجاز، التي صارت مركزًا علميًا مهمًا وتجمعًا خاصًا للعلماء والفضلاء[58]، لأنه دخل إلى ممارسة التزكية والسلوك وكان يرغب فقط في الاطلاع على تراجم بعض الشخصيات الصوفية، كما عبر عن

---

(55) محمد هاشم كشمي: زبدة المقامات، ص52.

(56) عن رحلته إلى الحجاز لأداء مناسك والحج والعمرة وفي طلب العلم، راجع: كتابه الخاص عبدالحق المحدث الدهلوي: زاد المتقين في سلوك طريق اليقين، ترجمة أردية لمسعود أنور العلوي، ط: قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة عليگراه عام 2009م.

(57) تجدر الإشارة هنا إلى أنه لم يحاول أحد من الوزراء والأمراء غير الأمير ميرزا عزيز الدين كوكا أن يسافر إلى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة.

(58) وقد عبر الشيخ في بعض رسائله عن رغبته في تحصيل علوم الحديث والفقه، فيقول: «وقد حصلت لي محبة كثيرة في حق العلماء طلبة العلوم. وتستحسن لي سيرتهم، وأتمنى أن أكون في زمرتهم، ونتذاكر مع طلبة العلوم «التوضيح والتلويح، من المقدمات الأربع لمباحث معهم ونقرأ «الهداية» أيضًا من الفقه، وأشارك العلماء أيضًا في القول بالإحاطة والمعية العلميتين». راجع: المكتوبات، جـ1، مكتوب رقم (8)، ص22-23.

(c) www.nidaulhind.com

ذلك في إحدى رسالاته فيقول: «لا يميل قلبي إلى مطالعة الكتب، ولا يطيب به إلا ما كان فيه ذكر مناقب المشايخ الكبار العالية وأحوالهم السامية الواقعة في المقامات. فيستحسن لي مطالعة أمثال ذلك. وأحوال المشايخ المتقدمين أكثر رغبة فيها...»[59].

ومن أهم الموضوعات التي تطرق إليها السرهندي واسترعى انتباه أركان الدولة، إلى جانب أداء الفرائض الدينية، هي: التمييز بين الحلال والحرام، والاجتناب عن الإسراف والتبذير على أساس أن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، ومراعاة حقوق العباد فيما بينهم، والالتزام الشرعي في المأكل والمشرب والملبس، والتواضع في التعامل مع الخلق أجمعين لأنه من الصفات المحمودة ويدل على طهارة النفس ويدعو إلى المودة والمحبة والمساواة بين الناس، وينشر الترابط بينهم ويمحو الحسد والبغض والكراهية من قلوب الناس، وفوق هذا كله فإن التواضع يؤدي إلى رضا المولى سبحانه وتعالى. والدعوة إلى الابتعاد عن علماء السوء والتقرب إلى العلماء الصالحين المتقين. ومن المعلوم أن لكل هذه الصفات علاقة مباشرة مع حياة المسلم اليومية الرتيبة التي تنضبط كل جزئياتها بالشريعة الإسلامية. والمهم أن السرهندي في كثير من مكتوباته خاطب أركان الدولة حول المعرفة الكاملة عن المال الحرام والحلال والفرق بينهما، مؤكدًا الانتباه الشديد بهما وتسديد الحقوق المالية للآخرين. ومن المعروف عن السلاطين والأمراء في العصور الوسطى أنهم كانوا يرتكبون المخالفات الشرعية في الشؤون الإدارية والمالية، وكانت هناك طرق وقنوات عديدة غير شرعية للحصول على الأموال عن طريق تطبيق بعض القوانين غير الشرعية في الشؤون المالية، مثل فرض قانون المحاصيل غير الشرعية، وصرف الأموال بالتبذر، والإسراف على حياة الترف واللهو واللعب والتنعم، وصرف أموال الدولة والشعب على تحقيق غاياتهم الشخصية والأسرية، وكانت الإدارة المالية وكثير من رجالها كان المعروف عنهم عمليات الرشى والفساد المالي.

وتوجه السرهندي ببعض مكتوباته إلى الأمراء وأركان الدولة في هذا الصدد، فيقول في إحدى مكتوباته المرسلة إلى بعض الإداريين مع المشورة على الاحتياط في

(59) راجع: المكتوبات الربانية، جـ1، مكتوب رقم (11)، ص27-30.

(c) www.nidaulhind.com

اللقمة وما يتعلق بها: «والنصيحة الأخرى الاحتياط في اللقمة لا ينبغي للإنسان أن يأكل كل ما التقاه من أي مكان كان من غير ملاحظة الحل والحرمة الشرعيتين؛ فإن الإنسان لم يترك سدى حتى يفعل كل ما يريد بل له مولى جل شأنه كلفه بالأمر والنهي، وبين مرضاته وخلافها بتوسط الأنبياء (عليهم الصلوات والتسليمات) الذين هم رحمات للعالمين والمحروم من السعادة من يقتضي خلاف مرضاة مولاه ويتصرف في مِلكه ومُلكه بلا إذنه، فينبغي الاستحياء حيث يراعون رضا الصاحب المجازي، ولا يريدون فوت دقيقة في هذا الباب ومولاهم الحقيقي قد نهاهم عن الأمور غير المرضية...»[60].

وقد نصح السرهندي بعض الإداريين بالصدق والأمانة في الشؤون المالية فيقول: «... إن رد نصف دانق إلى شخص أخذه عنه ظلمًا بلا وجه شرعي، أفضل من أن يتصدق بمئتي درهم. ولو كان لشخص من العمل الصالح مثل عمل نبي وبقي في ذمته حق شخص مقدار نصف دانق، لا يدخل الجنة حتى يؤدي ذلك...»[61].

وينبه الشخص الإداري الآخر على رغبات الدنيا والحرص عليها، ناصحًا له باجتناب كلي للأشياء الحرام والمشتبه فيه، فيقول:»... أخشى من أن ينخدع الأصحاب أولو الألباب مثل الأطفال بمزخرفات الدنيا الدنية، التي لها طراوة وحلاوة في الظاهر، وأخاف ميلهم من المباح إلى المشتبه ومن المشتبه إلى الحرام، فيبقون خجلين منفعلين من مولاهم. وينبغي أن يكون في التوبة والإنابة قدماً راسخاً، وأن يعتقد في المنهيات الشرعية سمًا قاتلًا...»[62].

نستطيع أن نقدر المجهودات المضنية التي بذلها الشيخ في تقويم الإدارة المغولية ماليًا وإداريًا، وأنصحهم بالابتعاد عن المحرمات والمشتبهات، إلى جانب قيامه بترسيخ مبادئ الإسلام نحو قضية الأموال وكيفية الصرف فيها. وإنه من الملاحظ، لا سيما بعد الاطلاع على المكتوبات المرسلة إلى السلطان وأركانه للدولة، أن

(60) راجع: المكتوبات، جـ2، مكتوب رقم (69)، ص174.

(61) راجع: المكتوبات، جـ2، مكتوب رقم (87)، ص193.

(62) راجع: المكتوبات، جـ2، مكتوب رقم (81)، ص189-190.

(c) www.nidaulhind.com

الشيخ السرهندي على الرغم من أنه نصح في هذه المكتوبات مرارًا وتكرارًا بأهمية إصلاح السلاطين وأركان الدولة، مع التوضيح وتأكيد اتباع الشريعة الإسلامية والعمل بها مع التوجه إلى الأعمال المشينة التي تمت في عهد السلطان أكبر حيال الشريعة الإسلامية من انتهاك حرمة الشريعة الإسلامية، وارتكاب المخالفة للقوانين الشرعية وهتك العادات والتقاليد الإسلامية، إلا أنه لا توجد تعليمات وإرشادات ونصائح واضحة في هذه المكتوبات، والتي تفيد بأنه طلب من أركان الدولة والسلطان نفسه أنه لا بد أن تتم الأعمال الإدارية ومسؤوليتها من خلال الشريعة الإسلامية، أي توضع الأصول والضوابط الشرعية في الأموال ووسائل دخلها وخرجها وصرفها، وتطبيق القوانين الشرعية برمتها في المحاكم القضائية المركزية والمحلية لتحقيق العدل والإنصاف على أرض الواقع، والقضاء على العادات والتقاليد غير الإسلامية، والتعامل مع الشعب في ضوء تعليمات نصوص القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة. وهناك بعض المكتوبات المرسلة إلى السلطان جهانگير نفسه، وبعضها إلى أبنائه ذكر فيها الشيخ مجالسه العلمية والدينية وما قام فيها من الوعظ والتذكير للسلطان جهانگير، ولكنه لم يلفت انتباه السلطان إلى هذه الأمور المذكورة أعلاه بكلام واضح في هذه المكتوبات.

وفي الرسالة المرسلة إلى السلطان جهانگير دعا فيها الشيخ للتوفيق والتسديد والفتح والنصر، وأكد أن العملية العسكرية والجهاد تقوي قوائم الدولة القاهرة وتؤيد أركان السلطنة الباهرة التي بدورها تساعد معنويًا وماديًا على ترويج الشريعة الغراء على أساس أن الشرع تحت السيف، موضحًا أسباب الفتح والنصر. وقسمهما إلى قسمين: قسم: جعل مربوطًا بالأسباب وهو صورة الفتح والنصرة المتعلقة بالعمليات العسكرية والجهادية، والقسم الثاني: حقيقة الفتح والنصرة الكائنة من عند مسبب الأسباب وقوله تعالى: «وما النصر إلا من عند الله» إشارة إلى ذلك وهي متعلقة بعسكر الدعاء، فعسكر الدعاء سبق بِذُلِّهِ وانكساره عسكر الغزو وترقى من السبب إلى المسبب». ويختم الشيخ هذه الرسالة قائلًا: «وهذا الفقير وإن لم يكن لائقًا بأن يجعل نفسه في عداد جنود الدعاء، ولكن بمجرد اسم الفقر ولاحتمال إجابة الدعاء، لا يجعل نفسه فارغًا من دعاء الدولة القاهرة ويكون رطب اللسان بالدعاء والفاتحة

(c) www.nidaulhind.com

بلسان الحال والقال «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»[63].

وفي رسالة أخرى مرسلة إلى أبنائه ذكر فيها الشيخ السرهندي مجلسه العلمي والديني مع السلطان جهانگير، والذي انعقد في رمضان المبارك ألقى فيه الشيخ كلمته أمام السلطان حول مقاصد بعثة الأنبياء والمرسلين، وسبب ختم النبوة، وعدم استقلال العقل والإيمان بالآخرة وعذابها وثوابها، ومن إثبات رؤية الله في يوم القيامة، والاتباع للخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم أجمعين)، وسنية التراويح، وبطلان التناسخ ومن أحوال الجن ومن عذابهم وثوابهم وغيرها من الموضوعات الدينية المهمة. وأكد الشيخ أن السلطان سمع كلامه بجدية تامة[64].

الخاتمة

قام الشيخ السرهندي بشرح العقيدة الإسلامية وتوضيحها، والعبادات والأحكام الشرعية ومقاصد الشريعة والفكر الإسلامي، ودعا النخبة السياسية والعلماء والصوفية إلى ترويجها ونشرها في المجتمع الهندي؛ ذلك كله من خلال ملفوظاته المكتوبة، وبذل مجهودًا كبيرًا في تحقيق هذه الأهداف، وهذا كله جميل، ولكن ينبغي لنا أن نعرف أنه ليس الوحيد الذي قام بذلك، بل كانت هناك بعض الشخصيات من المحدثين والعلماء الكبار مثل الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي المتوفى 1052هـ/ 1642م[65]، وشيخه الشيخ عبدالوهاب المتقي المكي[66]، والشيخ محمد بن طاهر **الپتني** المتوفى 986هـ/ 1572م[67]، والشيخ على بن حسام الدين المتقي المتوفى 975هـ/ 1567م[68]، وغيرهم الذين كان لهم دور كبير أيضًا في نشر علوم الحديث والقضاء على البدع والخرافات، ونشر التعليم الديني وفتح المدارس

(63) راجع: المكتوبات، جـ3، مكتوب رقم (47)، ص299-300.

(64) راجع: المكتوبات، جـ3، مكتوب رقم (43)، ص294.

(65) راجع: ترجمته في عبدالحي الحسني، الإعلام، جـ2، ص553-557.

(66) السابق، ص583.

(67) راجع: ترجمته في عبدالحي الحسني، الإعلام، جـ1، ص409-410.

(68) السابق، ص385-388.

(c) www.nidaulhind.com

الإسلامية وغيرها من الإسهامات الجلية. ثم يجب علينا أن ننبه إلى ما وقع فيه الشيخ من زلات وأخطاء فادحة، حتى يرى نفسه فوق كل الشيوخ الصوفية، وأستاذه عبدالباقي، حتى فوق سيدنا أبي بكر (رضي الله عنه)، وادعى القيومية وهي من شطحاته مثلما قال بعض الصوفية قبل ذلك، «سبحاني ما أعظم شأني» و«ليس في جبتي سوى الله» وغيرها[69].

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: إلى أي مدى نجح الشيخ أحمد السرهندي في تقويم السلطان جهانگير، والشخصيات المهمة من الوزراء، وأعيان الدولة؟ هل ساعدت رسائله ومكتوباته على تغير أحوالهم الدينية وأحوال الناس الآخرين؟ وهل هم بدورهم قاموا بنشر الإسلام والشريعة الإسلامية بواسطة القنوات المشروعة والمنظمة؟ وفي الواقع هذه الأسئلة خارج نطاق هذا البحث؛ لأنها ستتطلب بحثًا مستقلًا لمناقشتها، والبحث عن النتائج التي ترتبت على مجهوداته في سبيل الفكر الإسلامي. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن جميع الحركات الإصلاحية التي نشأت في العصور التالية تأثرت بالطريقة النقشبندية، لاسيما بأفكار الشيخ أحمد السرهندي.

ولا شك أنه من خلال هذه المبادرات الإصلاحية كان يريد أيضًا توسيع نطاق السيادة للطريقة النقشبندية على حساب الطرق الصوفية الأخرى، مما أدى إلى الصراع بين جميع الطرق الصوفية آنذاك، وحتى في العصور التالية في عصر الدولة المغولية. ولكنه يعد من أكثر مفكري التيار الصوفي الإصلاحي في القرن الحادى عشر الهجري تأثيرًا في الأجيال الممثلة في عصر الاستعمار البريطاني، لا سيما أسرة الشيخ ولي الله الدهلوي وغيرهم، والذين شكلوا امتدادًا لدعوته سواء في مجال التربية الإسلامية أو نشر الأفكار الصوفية النقشبندية بواسطة أعمالهم الفكرية أو عن طريق تأسيس المؤسسات التعليمة والفكرية، وكذلك تأثر به الشخصيات الإسلامية الأخرى من المدارس الفكرية الأخرى.

(69) عن ما كتبه عن تفوقه على الأئمة والصحابة، راجع: المكتوبات جـ1، ص27، رقم مكتوب (11).

(c) www.nidaulhind.com